٣١ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل العاشر ـــ « الخرافات »

لا يجوز عقلاً أن تثير هذه الأوهام التي توجد في أذهان شعب جاهل دهشتنا؛ ولكن المصريين لا يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب، وإنما يجاوزون ذلك إلى بعض أفراد من البشر مثلهم. وكثيراً ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له[1]. فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله في السماء وجسده يختلط بالبشر. ويعدونه لذلك ولياً. ومهما ارتكب الولي المشهور من الخطايا — وكثير منهم يخالفون الدين — فهي لا تؤثر على قداسته إذا لم تعتبر نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية، فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة في التقوى؛ ولذلك تُترك شهواته بلا رقيب. ويحبس المجانين الخطرون؛ أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعتبرون أولياء. وأكثر أولياء مصر المشهورين معتوهون أو بله أو خداعون. ويسير بعضهم عراة تقريباً ويتمتعون باحترام زائد بحيث أن النساء بدلاً من تجنبهم يتكبدن أحياناً الكثير من تصرفاتهم الشاذة في الطريق العام، ولا يشعر العامة بأي عار من هذه الأعمال التي يندر مع ذلك حدوثها. ويُرى آخرون لابسين مرقّعة مختلفة الألوان تسمى «دلق»[2] وهو مزين بالخرز، ومعممين بعمة بالية وحاملين عصا شبك في أعلاها سبائب نسيج مختلفة الألوان، ويأكل بعضهم التبن أو خليطاً من التبن والزجاج المكسر ويلفتون النظر بأعمال غريبة مختلفة.

وكثيراً ما قابلت أثناء زيارتي الأولى في شوارع القاهرة رجلاً زري الشكل عاري الجسم تقريباً مضفر الشعر طويله، راكباً حماراً يقوده رجل آخر. فيقف دائماً حماره أمامي مباشرة بحيث يقطع عليّ الطريق ويقرأ الفاتحة، ثم يمد يده للسؤال. وقد حاولت أن أتجنبه في أول مرة؛ إلا أن أحد المارين حذرني ملاحظاً أن الرجل ولي، وأن عليّ أن أحترمه وأن أمنحه ما يريد حتى لا تصيبني مصيبة. ويتعيش رجال هذه الطبقة على الصدقات التي كثيراً ما يتناولونها دون سؤال. ويسمى القديس المشهور « شيخ » أو « مرابط » أو « ولي »، ويسمى أيضاً على الأصح إذا كان به بله أو جنون أو خبل « مجذوب » أو « مسلوب ». وتطلق عبارة « ولي » بدقة على القديس التقي السامي فقط ومعناها المختار. إلا أنها تطلق عامة على البُله أو المتبالهين، حتى أن بعض الأذكياء جعلوا لفظ الولي معادلا للفظ « بليد »، ملاحظين أن تينك العبارتين متساويتا المعنى والقيمة العددية للحروف المكونة لكل منهما. إذ أن « ولي » مكونة من الواو واللام والياء، وقيمة كل على التوالي ٦، ٣٠، ١٠ أي ٤٦ و « بليد » مكونة من الباء واللام والياء والدال وهي على التوالي ٢، ٣٠، ١٠، ٤ ومجموعها ٤٦، وكثيراً ما يسمى النبي ولياً للدعابة.

ويعتقد مسلمو مصر وغيرها من البلدان اعتقادات باطلة عجيبة بالأولياء. وقد حاولت أن أستفهم عن أكثر هذه الاعتقادات غموضاً فكان الرد علي: « إنك تتدخل في أمور (الطريقة) » أي منهج الدراويش الديني. إلا أنني وقفت على كثير من الآراء العامة في هذه الموضوعات. وأظن أن ذلك هو كل ما يطلب تقريره في كتاب مثل هذا. وسأسرد مع ذلك أقوال بعض المتعلمين والدراويش فيما يتعلق ببيان إذعان العامة

وكل من يرتاب في وجود الأولياء يُرمى بالمروق ويتلى للحكم عليه نص القرآن: « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ». ويعتبر هذا النص كافياً للدلالة على أن هناك طبقة من الأفراد متميزة على البشر العاديين. وقد تساءل

(١) كما هو الحال أيضاً في سويسرا

(٢) وتطلق أيضاً وعلى الأصح «دالق» إلا أن العامة ينطقونها كما سبق

من هم هؤلاء الأشخاص أو ما حالهم؟ والرد على ذلك أنهم أشخاص قصروا أنفسهم على عبادة الله واحتفظوا بإيمان صادق، ومن الله عليهم بالقدرة على فعل الكرامات تبعاً لقوة إيمانهم[1]

يسمى أقدس الأولياء « قطباً »، ويحمل هذا اللقب — على رأى بعضهم — رجلان، ويقول البعض الآخر أربعة. وتعنى عبارة « قطب » محوراً، ومن ثم أطلقت هذه الكلمة على الولى الذى يثق به الناس ويتبعونه، ويطلق هذا اللفظ للسبب نفسه على الحكام الزمنيين أو السادة الأجلاء. وقد أخبرت أن الرأى القائل بأربعة أقطاب خطأ شائع، أصله توالى ذكر عبارة (الأقطاب الأربعة) التى تشير إلى مؤسسى أشهر الطرق الصوفية الرفاعية والقادرية والأحمدية والإبراهيمية؛ ويُعتقد أن كلاً من هؤلاء كان قطب زمانه؛ وقيل لى أيضاً أن الرأى القائل بقطبين خطأ نشأ أساسه اسمان: (قطب الحقيقة) و (قطب الغوث)، لا يختص بهما على الأصوب غير شخص واحد فقط. ويطلق الذين يعتقدون بوجود قطب واحد عليه عبارة (القطب المتولى) وهو الحاكم الآن، والذين يعتقدون بوجود قطبين على القطب العامل. ويحكم القطب الذى يراقب الأولياء جميعهم، سواء أكان هناك قطب آخر أم لم يكن لأنه إذا وجد يكون دون الأول، أولياء متفاوتى الرتب يقومون بأعمال مختلفة مثل النقباء والأنجاب والأبدال الخ؛ وهم يعرفون وظائف بعضهم بعضاً، وقد يعرف ذلك الأولياء الآخرون

ويقال إن القطب كثيراً ما يظهر ولكنه لا يعرف. وكذلك أتباعه ذوو السلطة.

ومع أن القطب يختفى دائماً فإن أماكن وجوده معروفة، ولكنه قليلا ما يظهر فيها. والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة. وهو يصيح مرتين فى جوف الليل قائلا: « يا أرحم الراحمين »، فيردد المؤذنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة. وقد سألت حاجا فاضلاً فى هذا الموضوع فأقر لى أنه رأى بعينيه إماماً مرتباً ليصيح هذه الصيحة. ولا يعرف ذلك غير القليل من الحجاج. ويعتقد مع ذلك أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسى. ويخص هذا المجهول الموقر مركزاً آخر بباب القاهرة المسمى باب زويلة، وهو فى الطرف الجنوبى من ذلك القسم الذى يكون المدينة القديمة وإن كان فى قلب البلد الآن؛ فقد امتدت القاهرة كثيراً نحو الجنوب والغرب. ويسمى العامة باب زويلة « باب المتولى »[1] لاعتقادهم أنه مركز هذا الكائن المجهول. ومن وراء أحد مصراعى الباب العظيم الذى لا يفتح أبداً فضاء صغير يقال إنه مكان القطب. ويقرأ الكثير من المارين الفاتحة، ويتصدق البعض على سائل يجلس هناك، ويعتبره الرعاع أحد خدام القطب. ويدق المصابون بالصرع مسماراً فى الباب لفك السحر، كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سناً ويولجونها فى أحد شقوق الباب أو يلصقونها به بأى حال آخر حتى يضمنوا عدم إصابتهم بالمرض نفسه. وكثيراً ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب آملين عبثاً اختلاس النظر إلى القطب لعله يظهر هناك. وللقطب فى مصر مراكز أخرى أقل شهرة. أحدها فى قبر السيد أحمد البدوى بطنطا، والآخر فى مدينة المحلة وغيرها. ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر فى لحظة. ولا يقتصر القطب على سكنى أماكنه العديدة المفضلة وإنما يتنقل فى أنحاء العالم بين جميع البشر من مختلف الأديان متخذا شكلهم ومظهرهم ولغتهم ويوزع عليهم بواسطة أتباعه الأولياء أحكام القدر حتما ونقما. وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه فى الحال

ويروى الكثير من المسلمين أن إلياس، ويخلطه العامة بالخضر[2]، كان قطب زمانه، وأنه يولى الأقطاب للتعاقبين

(١) عوضاً عن باب المتولى

(٢) لم يكن الخضر حسب رأى الفقهاء رسولا وإنما كان رجلا صالحا. كان وزير ذى القرنين الأول ومستشاره، ولكنه على حد سواء رجل ملتبس فى أمره معاصر لسيدنا إبراهيم، ويقال إن الخضر شرب من ينبوع الحياة وهو لذلك حى حتى يوم الحساب، وأنه يظهر كثيراً للمسلمين فى حيرتهم، ويلبس الخضر الملابس الخضراء ومن ذلك اشتق اسمه

(١) ويسمى ما يقوم به الولى من عجائب « كرامة » وما يأتيه الرسول « معجزة »

إذ يقررون أنه لم يمت ويزعمون أنه شرب من عين الحياة . ويبدو أن اعتقادهم فى القطب مأخوذ مما قص علينا فى التوراة عن إلياس ورفعه إلى السماء ، وانطلاقه من مكان لآخر تحمله روح الله ، ومنحه أليسع سلطته الخارقة للعادة وتقليده إياه وظائفه ، وخضوع الرسل الآخرين له ولوليه المباشر[1] . وينبذ بعض الأولياء لذات الدنيا وصحبة الإنسان ويعكفون على التأمل فى السماء وينقطعون للصلاة متوكلين على العناية الإلهية لسد حاجتهم ، إلا أن خلوتهم تعرف فيحضر العرب لهم الطعام يومياً . وهذا يذكرنا مرة أخرى بقصة إلياس إذا وضعنا كما يرى بعض الناقدين ، كلمة (عرب) بدلاً من لفظ (غربان) فى الآيتين الرابعة والسادسة من الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى : « وقد أمرت (العرب) أن تعولك » ، « وكانت (العرب) تأتى إليه بخبز »

ويقال إن القطب يكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة حسب قول محدثى ، ويقال لهؤلاء الأولياء (أصحاب الدرك) ، وقد فسرت لى هذه العبارة ، ولا أعلم على أى أساس ، بمعنى المراقبين[2] . وقد حكى لى الحكاية التالية لبيان وظائف هؤلاء قال : اشتدت رغبة أحد تجار هذه المدينة الأتقياء فى أن يصير ولياً ، فتوجه إلى آخر ينتمى لهذه الطبقة المقدسة فتوسل إليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب . وبعد أن احتمل الطالب امتحاناً صارماً لمعرفة بواعثه طلب منه أن يتوضأ مبكراً فى الصباح التالى ثم يقصد مسجد المؤيد حيث يوجد بإحدى زواياه باب زويلة أو المتولى السابق ذكره ، فيقبض على أول من يراه خارجاً من الباب الكبير لهذا المسجد . وفعل الرجل ما قيل له ، وكان أول من خرج رجل شيخ مهيب المنظر ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطاً من الصوف أحمر اللون ، وقد دل ذلك على أنه القطب . فقبل الطالب يده وتضرع إليه أن يقبله بين أصحاب الدرك . فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال : « التزم القسم الذى يشمل الدرب الأحمر[1] وما يجاوره » . وفى الحال وجد الطالب نفسه ولياً ، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، إذ يقال إن الله يعلم الولى جميع الأسرار اللازم معرفتها . ويقال عادة إن الولى يعلم الغيب ويبدو هذا مناقضاً لما نقرأه فى عدة مواضع من القرآن إنه لا يعلم الغيب غير الله . إلا أن المسلمين وهم قلما يرتبكون فى مناقشة ما ، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الأسرار بمعناها المطلق وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الأسرار كلما شاء ذلك

* * *

استدراك : وردت المقالة السابقة تابعة للفصل التاسع ، والصواب أنها ابتداء الفصل العاشر : « الخرافات »

(يتبع) عبد الحليم طاهر نور

(١) أنظر سفر الملوك الأول الاصحاح ١٨ آية ١٢ والملوك الثانى الاصحاح الثانى ٩ — ١٦

(٢) ويوافق هذا التأويل تفسيراً ذكره كاترمير Quatremère لكلمة (درك) فى كتابه تاريخ السلاطين المماليك Histoire de Sultans Mamelouks الجزء الأول ص ١٦٩ وقد استخرج هذا التفسير من مقابلة عدة عبارات جاءت بها هذه الكلمة

(١) وهو شارع يوصل من باب زويلة إلى الجنوب الشرقى ويكون جزءاً من الشارع الكبير الذى يمتد إلى القلعة

ملامح المجتمع العراقي

للدكتور زكى مبارك

كتاب يصوّر العراق فى مذاهبه الأدبية والذوقية والاجتماعية والقومية

يظهر فى الأسبوع المقبل

اعلان

يعلن مجلس محلى منيا القمح فقدان ثلاثة قسائم يطرى أصل وصورة من نمرة ٢٤١٤٥ إلى نمرة ٢٤١٤٧ وقد اعتبرها المجلس ملغاة وكل من يستعملها للحصول بها على أموال أميرية أو خلافه يكون عرضة للعقوبة الجنائية ٩٢٧٤